أزمات مطلع القرن السابع عشر وقيام الدولة العلوية

شكل مطلع القرن السابع عشر منعطفا في تاريخ المغرب عموما وتاريخ الدولة السعدية على وجه الخصوص. فبعد أن نعم المغرب بفترة استقرار سياسي وانتعاش اقتصادي امتدت منذ الانتصار الذي حققه في معركة وادي المخازن على البرتغال سنة 1578، والذي وطد هيبة الأسرة السعدية كدولة حاكمة طيلة مدة حكم السلطان المنصور (1578-1603)، جاءت وفاته في سنة 1603 لتميط اللثام على مجموعة من الاختلالات كانت تتوارى خلف تلك الصورة المشعة التي كان المغرب يتمتع بها، ولتطفو على سطح الأحداث مجموعة من الأزمات أبانت عن هشاشة البنيان السياسي لهذه الدولة. انطلقت هذه الأزمات منذ بداية القرن السابع عشر، ولم تنته إلا بوصول الشرفاء العلويين إلى الحكم خلال النصف الثاني من القرن.

تمثلت هذه الأزمات في أزمات سياسية على رأسها معضلة انتقال الحكم بين أبناء المنصور، والتي أقحمت الدولة في مرحلة طويلة من الصراع بين أبناء وحفدة هذا السلطان، وأدت إلى تجزئة المغرب بين مجموعة من أدعياء الحكم، كما أفرزت مجموعة من الكيانات المحلية التي تنافست فيما بينها للسيطرة على البلاد، وأعادت المطامع الإيبيرية والعثمانية التي كانت تتحين الفرص للانقضاض على المغرب إلى واجهة الأحداث، بعد أن تراجعت طيلة ربع قرن. زاد من تعميق هذه الأزمات السياسية أزمات اجتماعية واقتصادية تمثلت في توالي سنوات المجاعات والجفاف ودورات الأوبئة.

1- شكلت أزمة ولاية العهد بعد وفاة السلطان أحمد المنصور أهم الأزمات السياسية التي عرفها المغرب مطلع القرن السابع عشر.

بالرغم من كون السلطان أحمد المنصور عمل على ضبط الأمن والاستقرار بالمغرب عن طريق تعيين أبنائه ولاة على مختلف أقاليم المغرب، ومن خلال تأسيس قاعدة قارة تضمن سلاسة انتقال الحكم داخل البيت السعدي بعد وفاته، اتقاء لاندلاع أي صراع محتمل بين أبنائه على السلطة، وذلك عن طريق حصوله، منذ السنة الأولى لتوليه الحكم، على بيعة ابنه محمد الشيخ المامون وليا للعهد، وتوليته خليفة له على مدينة فاس. كما عمل على تجديد بيعة ولاية العهد تلك سنة 1584. لكن إقدام السلطان المنصور على اتخاذ قرار تولية ابنه محمد الشيخ جاء بأثار عكسية، إذ شكل النواة الأولى لبداية انهيار الدولة السعدية، والمنصور لا يزال على قيد الحياة، ولم يحم الدولة الفتية من تنازع أبنائه وحفدته على السلطة.

فقد كان اختيار السلطان لابنه محمد الشيخ المامون دون باقي أبنائه ليعينه وليا للعهد ويوليه على ثاني أهم مدينة في البلاد منذ السنة الأولى لتوليه مقاليد الحكم اختيارا غير موفق منذ البداية، إذ أبان محمد الشيخ المامون، في حياة والده، عن انعدام كفاءته كمسير للبلاد. فمنذ توليه خلافة مدينة فاس، أقدم هذا الأمير على مجموعة من التصرفات

التي تتنافى مع وضعيته كوال ومستقبله كحاكم، إذ كان سيء السيرة، لا يتورع عن ابتزاز أموال الرعية، كما لم يكن يحفل بآداء واجباته الدينية، إلى جانب كونه ظل مصرا على تجاوز الصلاحيات التي خولها له منصبه كخليفة. إلا أن السلطان المنصور لم يبد أي حزم في تعاطيه مع سلوك ابنه، إذ لم يقم بأي إجراء صارم يجعل ابنه يتراجع عن تصرفاته ويردعه عن مواصلة التجاوزات التي يقوم بها، بل اكتفى في البداية بمحاولة ارجاعه باللين عن سلوكه، وذلك بمراسلته وتحذيره، ثم إرسال وفد يدعوه للعودة إلى رشده. لكن جهود هذا الوفد باءت بالفشل، إذ تمادى محمد الشيخ المامون في تجاوز صلاحياته، وأعلن الثورة على والده ونادى بالملك لنفسه، ولجأ للاستعانة بأتراك الجزائر ضده. أمام هذا الحدث قام السلطان بمطاردة ولي عهده واستطاع الظفر به وأودعه في سجن مدينة مكناس سنة 1602، وعين ابنه زيدان، الذي كان خليفة على إقليم تادلا وأحوازها واليا على فاس. إلا أن ما زاد الأمر تعقيدا هو الوفاة المفاجئة للسلطان بعد إصابته بوباء الطاعون سنة 1603 دون أن يبث في أمر ولاية العهد، الأمر الذي أقحم البلاد في صراع مرير وتطاحن كبير بين أبناء المنصور. فقد بادر أهل فاس وعلماؤها، بموافقة قواد الجيش، مباشرة بعد وفاة المنصور، على مبايعة ابنه زيدان. ولما بلغ خبر الوفاة والبيعة إلى مراكش، ثار أهلها وبايعوا ابنه أبا فارس عبد الله الذي كان خليفة والده في مراكش. كانت بيعة أبي فارس نذيرا بإعلان الحرب بينه وبين زيدان، خاصة بعد أن أفتى علماء فاس بوجوب قتال المراكشيين. وهكذا التقى جيشا السلطانين على ضفة نهر أم الربيع، أناب أبو فارس في هذه المواجهة العسكرية أخاه محمد الشيخ المامون عن نفسه، بعد أن أطلق سراحه من السجن. وأسفرت المعركة عن انهزام زيدان، لكن الأمر ازداد حدة عندما انشق محمد الشيخ المامون عن أخيه أبي فارس وقام بتنصيب نفسه سلطانا على فاس بعد أن انضم إليه جند السلطان زيدان، فلاذ زيدان بأهل فاس الذين تخلوا عنه بدورهم وبايعوا محمد الشيخ المامون. وأمام خروج كل من فاس ومراكش عن بيعة زيدان اضطر إلى اللجوء عند الأتراك بتلمسان.

بعد أن استقر الأمر لمحمد الشيخ المامون بفاس، بعث ابنه عبد الله في جيش قوامه 8000 مقاتل فاستولى على مراكش وجعل من عمه أبي فارس مجرد أمير تابع له، وأساء السيرة بالمدينة هو وجنده، مما جعل أهلها يستقدمون زيدان ويبايعونه من جديد، غير أن عبد الله بن المامون عاد بكتائب أخرى من فاس ولقي جند زيدان وهزمهم واسترجع مراكش واستباح أموالها ونساءها، فثار المراكشيون عليه من جديد وعادوا يستقدمون زيدان مرة أخرى، فاستعاد مراكش بصفة نهائية.

ظل الإخوة الثلاثة بعد ذلك يتنازعون الملك مدة طويلة، يتحالف الواحد منهم ضد الأخر دون أن يتم الأمر لواحد منهم، وعمت الاضطرابات أرجاء البلاد كلها. لكن دوامة هذا الصراع خفت، واستقر الأمر نسبيا لمولاي زيدان بمراكش إثر اغتيال أخيه أبي فارس خنقا سنة 1610 على يد عبد الله بن المامون، وانتهاء أمر محمد الشيخ المامون مقتولا في تطوان سنة 1613. فانقسمت بذلك البلاد إلى قسم شمالي مركزه فاس، وقسم جنوبي مركزه مراكش، كما كان الحال أوائل أيام السعديين. حيث ظلت فاس تحت سلطة عبد الله بن محمد الشيخ المامون، إلى أن انقرض أمر السعديين فيها بموته سنة 1627.وترك أمرها بعد ذلك بين المتنافسين على الحكم والثوار.

أما مملكة مراكش، فقد اكتفى مولاي زيدان وأبناؤه وحفدته من بعده بتوارث حكمها دون التطلع لبسط سيطرتهم خارجها. فبعد وفاته سنة 1627 تولى الحكم فيها ابنه عبد الملك بن زيدان، إلا أنه تعرض للاغتيال سنة 1630من قبل أخيه الوليد الذي تولى الحكم بعده مدة خمس سنوات، وقام بسجن أخيه محمد الشيخ الأصغر خوفا من أن يثور عليه، لكنه تعرض بدوره للاغتيال على يد العلوج من جيشه، وتم إطلاق سراح محمد الشيخ الأصغر من سجنه الذي تولى الحكم بعد مقتل أخيه الوليد، لكن هذا السلطان لم يتمكن من بسط نفوذه خارج مدينة مراكش ومواجهة منافسيه على السيطرة عليها، خاصة الدلائيون الذين استفحل أمرهم في عهده وبسطوا نفوذهم على فاس بعد أن هزموه في معركة بو عقبة، والعياشي الذي امتد نفوذه على سلا ومنطقة الغرب، والعلويون الذين بدأوا يتحفزون لنشر دعوتهم. واكتفى بحكم المناطق الممتدة بين الأطلس وآسفي وأزمور ومراكش إلى أن توفي سنة 1653، وخلفه ابنه العباس الذي كان آخر السلاطين السعديين والذي ثار عليه أخواله من الشبانات وحولوا الملك إلى أسرتهم بعد أن قاموا باغتياله سنة 1658، إلى أن انتهى أمرهم على يد السلطان العلوي مولاي رشيد سنة 1669.

2- أسفر الصراع حول السلطة بين أبناء السلطان المنصور على تمزق وحدة البلاد بين مجموعة من الزعامات المحلية

ارتبط ميلاد الزعامات المحلية بالمغرب السعدي بمقاومة الوجود الأجنبي الذي استقر على السواحل بعد انحسار السلطة المركزية السعدية، وعجز أبناء المنصور عن القيام بواجب الجهاد، وسقوط ما تبقى للسعديين من هيبة في أعين العامة بعد أن سلم محمد الشيخ المامون مدينة العرائش للإسبان سنة 1610، وتزايد الشعور بالحاجة إلى قيادة جديدة قادرة على إعادة الاستقرار للبلاد. مما أدى إلى ظهور عدد من المجاهدين نددوا بتقاعس السلاطين السعديين عن القيام بواجب الجهاد. كما ارتبط أيضا بالتحول الذي شهدته الزوايا في علاقتها مع السلطة السعدية، بحيث تطلع العديد من زعمائها إلى المزاوجة بين الدورين الديني والسياسي، على أن حدث تسليم العرائش من قبل المامون يظل الحدث البالغ الأثر في تحول الزوايا من قوى داعمة للدولة السعدية إلى قوى مناهضة لها. إذ ساهم رجالاتها في تقليص النفوذ السعدي في المجالات النائية التي كانوا يتحكمون فيها، ولم يكتفوا بدور المجاهدين بل أصبحوا زعماء سياسيين، يتحكمون في مجالات واسعة، ويسيطرون على موارد اقتصادية هائلة، ويسعون إلى تشكيل دولة تتجاوز الحدود المحلية. خاصة أن عددا من هؤلاء المتطلعين إلى الحكم أعلنوا خروجهم عن السلطة السعدية واستقلوا تدريجيا بمناطق نفوذهم بعد انحسار السلطة السعدية في العاصمة مراكش وما حولها خلال الثلاثين سنة الأخيرة من عهد الدولة. وبظهور هذه الإمارات التي تنازعت السلطة، انقسمت البلاد إلى وحدات سياسية حرص بعضها على التوسع وبسط النفوذ مما زاد من حدة الاصطدامات العسكرية وتعدد المواجهات والحروب.

وقد تمثلت هذه الزعامات في شيوخ الجهاد والزوايا إلى جانب الموريسكيين الذين استقروا بسلا.

* ففي شمال المغرب تزعمت حركة الجهاد أسرتان أندلسيتان هما أسرة النقسيس وأسرة غيلان، والمجاهد العياشي والموريسكيين إلى جانب شيوخ الزاوية الدلائية

- **أسرة النقسيس**: أخضع أحد أفرادها، وهو محمد النقسيس، مدينة تطوان، التي كان يهددها الخطر الإسباني، لحكمه سنة 1597، دون أن يعلن الخروج عن طاعة السعديين، لكن بعد وفاة المنصور، انخرط آل النقسيس في الصراع الدائر حول الحكم، فأعلن أحمد النقسيس الثورة على المامون ودعا لزيدان سنة 1610، كما رفض استقبال المامون بعد عودته من إسبانيا، وفر إلى جبال غمارة. وفي سنة 1613 عاد إلى تطوان، وبما أنه ظل محافظا على ولائه لزيدان، فقد قتل قائد المدينة الذي عينه المامون، كما تآمر مع المقدم أبو الليف على قتل المامون، وهو الأمر الذي تم في نفس السنة.

- **أسرة غيلان**، استقرت ببلاد الهبط، وتصدى زعيمها، علي غيلان، ابتداء من سنة 1617 للجهاد ضد الإسبان في العرائش. واتخذ خليفته الخضر غيلان من مدينة القصر الكبير مقرا لإقامته ومركزا رئيسيا لحركته من أجل مواجهة الإمارة الدلائية، وقد انتهى أمر أسرة غيلان نتيجة انهزام المجاهد الخضر غيلان أمام جيش مولاي الرشيد، واضطر إلى مغادرة المنطقة والتوجه إلى الجزائر طلبا لدعم الأتراك.

- **الموريسكيون**، استقبلت عدوتا الرباط وسلا، بعد صدور أخر مرسوم طرد في حق الأندلسيين سنة 1609، أعدادا هامة من الموريسكيين، حيث استقر هؤلاء الوافدون الجدد بالقصبة ونظموا أنفسهم كجالية مستقلة، وتوسعوا في الرباط وسلا بعد تضاعف أعدادهم، وأسسوا ديوان سلا، وتزعموا حركة الجهاد البحري بأن أعطوا دفعة قوية لنشاط القرصنة التي اتخذت هدفا مزدوجا، تمثل في الجهاد ضد الوجود الإسباني بالمغرب، والاستيلاء على السفن الإسبانية المحملة بثروات العالم الجديد، وذلك بعد أن أنشأوا أسطولا وجه ضرباته ضد السفن الإسبانية كرد فعل على طردهم لهم، كما ربطوا علاقات مع المتنازعين على الحكم. فمباشرة بعد سماح مولاي زيدان لهم بالاستقرار على ضفة أبي رقراق، اتفقوا معه على أداء عشر غنائم نشاط القرصنة مقابل أن يسمح لهم بمزاولة نشاطهم الجهادي، لكن علاقتهم به ما لبثت أن عرفت توترا كبيرا بعد رفضهم أداء الضريبة للسلطان، ودخلوا في سلسلة من التحالفات مع الزعامات المحلية المتنازعة حول السلطة، فتحالفوا في البداية مع المجاهد العياشي الذي رأى فيهم جنودا يساعدونه في حروبه الجهادية، إلا أن تعامل بعضهم مع الأجانب جعلته يستصدر فتوى تجيز محاربتهم، كما أتاحت الصراعات الداخلية بين مختلف عناصرهم الفرصة للعياشي للسيطرة على مدينتيهم، فاستنجدوا بشيخ الزاوية الدلائية الذي تمكن من القضاء على حركة العياشي واستولى على المدينتين، ولما حاولوا الاستقلال من جديد حاصرهم محمد الحاج الدلائي إلى أن تمكن من تشريدهم، ولم تفلح مساعدات أتراك الجزائر وسلطان مراكش في رفع الحصار عنهم. وهكذا لم يتمكن الموريسكيون من إقامة كيان سياسي مستقل، واضطروا في نهاية الأمر للانصهار في المجتمع المغربي.

-**الحركة العياشية**: انطلقت هذه الحركة بزعامة محمد بن عبد الله العياشي من مزكان (الجديدة) بعد أن ولاه السلطان زيدان عليها وأسند له مهمة مقاومة المحتلين الإسبان بالمعمورة ودكالة. وبعد أن أكسبته أعماله الجهادية شهرة وشعبية واسعتين توترت علاقته بالسلطان، فاضطر إلى إخلاء منطقة دكالة واللجوء إلى مدينة سلا حيث نسج علاقات مع

الموريسكيين، وانطلق منها ليوجه حملات جهادية على المعمورة والعرائش وطنجة. لكن توسعات العياشي اصطدمت بالدلائيين الذين كانت لهم أطماع في المناطق الوسطى من البلاد والسعديين الذين اتفقوا مع الدلائيين ضده. وتضاعفت حدة الصراع بين العياشي والدلائيين وتعددت الاصطدامات الدموية بينهما. وقد انتهى أمر العياشي باغتياله بعد أن تمت تصفيته والقضاء على حركته على يد الدلائيين سنة 1641. وبالقضاء عليه انطلقت قوات الدلائيين وأدخلت في طاعتها معظم النواحي الشمالية والوسطى من المغرب وفتحت أمامها آفاق جديدة نتيجة الاتصالات الواسعة التي أصبحت لها مع دول غربي أوروبا التي كانت تتطلع إلى تطوير علاقاتها التجارية مع المغرب.

- **إمارة الدلائيين:** تنتسب إلى قبيلة مجاط الصنهاجية، التي أصبحت منذ تأسيسها ملجأ للثائرين زمن الأزمة السياسية، وقد برزت كقوة سياسية منافسة للكيانات السياسية الأخرى بعد أن أصبح محمد الحاج شيخا لها سنة 1637، حيث تمكن من بسط نفوذه على المجالات الممتدة شمال وادي أم الربيع سنة 1641، وأصبح يعرف بأمير الشمال، وبدأ التطلع إلى السيطرة على فاس ومكناس في أفق التمكن من بقية البلاد. إلا أن التوسع الدلائي في اتجاه الواحات الجنوبية اصطدم بمقاومة الإمارة العلوية الناشئة، إذ أجبرهم شيخ العلويين على التراجع إلى حدود جبل العياشي الذي أصبح حدا فاصلا بين العلويين والدلائيين. وقد تصدر الدلائيون الزعامة بالمغرب لفترة طويلة، وكانوا أكبر المنافسين للإمارة العلوية الناشئة التي تمكنت من طردهم من فاس، ثم وضعت حدا لنفوذهم السياسي بعد أن دكها المولى الرشيد سنة 1668.

* في جنوب المغرب تمثلت الزعامات المحلية التي حاولت توحيد البلاد في كل من حركة ابن أبي محلي، وإمارة أبي حسون السملالي، وإمارة العلويين.

- **ابن أبي محلي:** بدأ حركته من مسقط رأسه بوادي الساورة حيث ادعى المهدوية. وعلى إثر تسليم المامون العرائش للإسبان دعا الناس للجهاد، وانتشرت دعوته بالجنوب الشرقي، وسيطر على منطقة درعة قبل أن يدخل مدينة مراكش ويطرد منها السلطان زيدان السعدي ويضرب السكة باسمه. وقد انتهت حركة ابن أبي محلي بعد أن أوكل السلطان زيدان مهمة القضاء عليه للشيخ يحي الحاحي الذي تمكن من هزمه وقتله سنة 1614. لكن يحي الحاحي بعد قضائه على ثورة ابن أبي محلي، لم يقم بتسليم مدينة مراكش للسلطان زيدان، بل قرر الدعوة لنفسه وأعلن استقلاله بها، ولم يتمكن السلطان السعدي من استرجاعها إلا سنة 1617.

- **أبو حسون السملالي:** تميزت حركته بطول المدة الزمنية وشساعة المجال الجغرافي. فقد أسس إمارة بمنطقة سوس، ووضع أسسا قوية لبناء دولة مركزية انطلاقا منها، وتلقب بالسلطان، وجعل مدينة إليغ قاعدة ملكه. وبعد أن وطد حكمه في منطقة سوس تطلع للسيطرة على منطقة درعة وسجلماسة مستغلا أوضاعها المضطربة، ودخل في صراع مع شيخ العلويين، مولاي الشريف، وتمكن من أسره. لكن توسعه في اتجاه الشمال الشرقي اصطدم بمناطق نفوذ الزاوية الدلائية التي كانت تسعى إلى بسط سلطتها على مناطق الجنوب الشرقي للأطلس المتوسط، فركز أبو حسون اهتمامه على سوس والصحراء وانشغل بحركات التمرد في تلك المنطقة، كما اهتم ببلاد السودان، وأصبحت له بذلك

علاقات خارجية واسعة مع دول غربي أوروبا التي اعترفت بحكمه وأخذت تفاوضه وتعقد معه المعاهدات التحارية، بسبب ازدياد إقبال التجار الأجانب على التجارة مع غربي إفريقيا وبلاد السودان. وباتباع أبي حسون لهذه السياسة تمكن من جني أرباح طائلة من الصفقات التجارية ومن الحصول على العدة والعتاد للدفاع عن المجالات التي كان يسيطر عليها، لكنه في الوقت نفسه ابتعد بعض الشيء عن الشؤون الداخلية للمغرب.

– **إمارة العلويين،** يعود أصل العلويين إلى الحسن الداخل الذي استقر بسجلماسة قادما من الينبع بالحجاز، وقد كانت سجلماسة مركزا دينيا وملتقى لطرق التجارة الصحراوية. ولما ضعف أمر السعديين بعد وفاة المنصور وتجزأت البلاد أصبحت سجلماسة موضع اطماع الدلائيين والسوسيين وملتقى نفوذهم، مما دفع أهلها لمبايعة مولاي الشريف العلوي سنة 1631 للتصدي لاطماع هاتين الإمارتين. غير أن أبا حسون السملالي اغتنم فرصة نزاع داخلي حصل بين العلويين وجيرانهم الزبيريين ليتدخل في سجلماسة في محاولة لإخضاعها لنفوذه، حيث ألقى القبض على مولاي الشريف ونقله أسيرا إلى إيليغ. هذا التدخل المسلح أثار أهالي سجلماسة الذين بدأوا ينظمون أمر مقاومتهم. وفي سنة 1640 أعلنت سجلماسة بيعة محمد بن مولاي الشريف أميرا، فابتدأت بذلك الصفحة الأولى من تاريخ الدولة العلوية. وقد أثبت مولاي محمد جدارته عندما واجه قوات أبي حسون السملالي وانتصر عليها في عمليات عسكرية متوالية انتهت بإخراجه من سجلماسة. كما تطلع إلى تأسيس دولة، خاصة بعد ثورة فاس ضد محمد الحاج وإعلانها بيعة مولاي محمد بن الشريف، مما جدد الصراع بين العلويين والدلائيين. إلا أن انهزام مولاي محمد أمام الدلائيين جعله يتطلع إلى التوسع في اتجاه المغرب الشرقي وما جاوره من تراب المنطقة الوهرانية، فربط تحالفات مع قبائل بني معقل وقاد سلسلة من الحركات ببلاد بني يزناسن قبل أن يتوجه شرقا صوب تلمسان وتاهرت والأغواط، لكنه لم يحاول توطيد مكتسباته الترابية، وعمل على توقيع معاهدة الحدود مع الأتراك الجزائر التي تجعل وادي تافنا حدا فاصلا بينهم، وبذلك دخل المغرب في الشرقي في طاعة الإمارة العلوية الناشئة التي امتدت حدودها الشمالية حتى شواطئ البحر الأبيض المتوسط. وقد أبان مولاى الرشيد الذي خلف أخاه محمد سنة 1664 عن طموح كبير في تأسيس دولة والعمل على تخليصها من تناحر الكيانات المحلية، فبعد أن استتب له الأمر بالمغرب الشرقي، تطلع مولاي الرشيد إلى ضم بقية البلاد وإخضاعها لسلطته. لم يتطلب منه الأمر أكثر من خمس سنوات، فبعد أن اتخذ من مدينة تازة عاصمة له، حاصر مدينة فاس، ودخلها وقتل المغامر الدريدي الذي استبد بها ، ثم توجه صوب منطقة الهبط فطرد الخضر غيلان الكرفطي من القصر الكبير، ثم اتجه شمالا وقبض على آل النقسيس وأتباعهم بتطوان، وانحدر مع السهول الأطلنتية بما يشبه عملية تطويق الدلائيين في الأطلس المتوسط لعزلهم والحيلولة بينهم وبين الموانئ الأطلسية حيث تجار الأسلحة الأوروبيون، وتمكن بذلك من هزم الدلائيين وهدم زاويتهم وغربهم إلى فاس وتلمسان، وتعززت قواعده على البحر المتوسط بالسيطرة على الحسيمة سنة 1666، ودخل مراكش فقضى بها على حاكم الشبانات قبل أن يضم بلاد السوس والأطلس الصغير، واضعا بذلك حدا لنفوذ السملاليين. وبذلك يكون قد تمكن من توحيد المغرب كله.

3- مثل التدخل الأجنبي في شؤون المغرب الداخلية مظهرا آخر من مظاهر أزمة القرن السابع عشر.

دخل الإخوة الثلاثة وأبناؤهم في حروب دامية استنفدت قوى الدولة السعدية، وقد كان من أخطر مضاعفات هذا الوضع أن المغرب أصبح عرضة لأطماع الدول الأجنبية بعد أن عادت هذه الدول، غداة وفاة المنصور، لتوجيه أنظارها إلى التراب المغربي، مستغلة حالة انقسام البلاد، وتعدد أدعياء الملك، وحاجتهم للدعم المادي والعسكري والصداقات الأجنبية، الإسبانية والعثمانية منها على وجه الخصوص، وذلك بعد فترة التوقف التي أعقبت نجاح الدولة السعدية، خلال مرحلة التأسيس، في تحرير الكثير من الثغور التي كانت خاضعة للبرتغال. الأمر الذي جعل مناطق من شرق المغرب وغربه عرضة لهجومات خارجية.

-**الأطماع الإسبانية:** اغتنم الإسبان فرصة الحروب الأهلية وحاجة المتحاربين إلى الأسلحة والعتاد والقوات المقاتلة ليداهموا قواعد على السواحل الغربية المغربية (العرائش والمعمورة وأصيلا). بل تطور الأمر إلى السيطرة على بعض المناطق دون بذل أي مجهود. وتعتبر قضية تسليم محمد الشيخ المامون العرائش للإسبان أهم نموذج على ذلك، فنتيجة رغبة محمد الشيخ المامون في الانفراد بالعرش السعدي والتخلص من منافسيه، لجأ إلى الإسبان مستنجدا بهم لمساعدته على تحقيق أهدافه، خاصة بعد تفوق جيوش أخيه زيدان على جيشه، ومبايعة أهل فاس لأخيه، في الوقت الذي ازدادت فيه سمعة المامون سوء. بسبب هذه العزلة التي وجد نفسه فيها، انتقل المامون إلى العرائش، ومنها إلى القصر الكبير، وهناك اتخذ قراره الخطير القاضي بطلب النجدة من الإسبان لتمكينه من العرش، فعبر إلى إسبانيا وطلب من ملكها العون، لكن هذا الأخير رفض، فوعده المامون بأن يترك عنده أولاده وحاشيته رهائن ويعينه بالمال والرجال، حتى إذا تمكن من العرش بذل له ما شارطه عليه. لكن الملك الإسباني اشترط عليه تسليمه مدينة العرائش مقابل الحصول على الدعم، فقبل المامون الشرط، وعاد إلى المغرب فنزل حجر بادس، ثم تقدم فنزل بلاد الريف، وفي يوم 20 نونبر من سنة 1610 قام بإخلاء المدينة من سكانها ودخل الإسبان العرائش واستولوا عليها بمساعدته، وأقاموا فيها قاعدة حربية تسمى سان ميجيل دي أولتمار، وذلك مقابل توصله بمساعدات عسكرية قدرها 200 ألف دوقة و6000 بندقية.

لقد كانت قضية العرائش ضربة قاضية للدولة السعدية، فلم يستقم لسلاطينها أمر بعدها، وأحس الناس أنهم بحاجة إلى سلطان جدير بالطاعة، وظهر الأمر بشكل جلي في فاس التي انتشرت فيها الفوضى، وحصدت فيها الحرب الأهلية زهاء سبعة آلاف قتيل، وفقد الناس الأمل في السعديين الذين تخاذلوا في رد العدوان المسيحي على الشواطئ وفقدوا رسالتهم ووظيفتهم الأساسية، خاصة وأن السلطان زيدان لم يبد أي رد فعل بعد تسليم أخيه لمرسي مغربي للعدو.

واصلت إسبانيا اهتمامها بالسيطرة على نقط بالساحل المغربي، وركزت على المعمورة، التي بمجرد تخلصها من الاحتلال البرتغالي أصبحت مركزا لاستقطاب القراصنة من مختلف الجنسيات، الذين جعلوها نقطة ارتكاز لعملياتهم، فازدهرت بها العمليات التجارية، واستقلت تحت حكم القراصنة، مما جعلها تمثل خطرا على التجارة الأوروبية،

فأسرعت إسبانيا في تنظيم حملة عسكرية عليها للتخلص من خطر القراصنة، وفي الوقت نفسه كي تسبق هولندا التي كانت قد قررت، باتفاق مع زيدان، على وضع يدها على المعمورة. وقد تمكنت القوات الإسبانية من الاستيلاء على حصن المعمورة في 6 غشت سنة 1614.

لم يكن محمد الشيخ المامون هو الأمير الوحيد الذي لجأ لطلب الدعم من الأوروبيين، فقد ربط أخوه زيدان علاقات مع هولندا من أجل الحصول على الأسلحة أيضا.

-**الأطماع العثمانية**، لطالما تحين الباشاوات الأتراك بالجزائر الفرص للتوسع على حساب التراب المغربي، وقد واتتهم الفرصة المناسبة وبسطوا سيطرتهم على مناطق المغرب الشرقي وتمركزوا بمدينة وجدة بوجه خاص بعد وفاة المنصور، لكنهم لم يحاولوا التعمق داخل المجال المغربي، بل اقتصر تدخل دايات ولاية الجزائر العثمانية في الشؤون الداخلية للمغرب على دعم بعض أدعياء السلطة واستقبال اللاجئين منهم. فقد استقبلت الجزائر زيدان عندما اضطر إلى الفرار بعد انهزامه في مواجهة أخويه المامون وأبي فارس، وأقام مدة بتلمسان، وحاول انطلاقا منها الاتصال بالباب العالي الذي وعده بالمساندة، وجهز له أسطولا جعل على متنه اثني عشر ألف جندي، وذلك بعد أن قدم للسلطان العثماني هدية تحتوي على عشرة قناطير من الذهب، لكن معظم قطع هذا الأسطول تعرضت للغرق. كما وصل وفد تركي لتهنئة أبي محلي بانتصاره ودخوله سجلماسة، مما يدل على سابق علاقة بينه وبين الأتراك، ولجأ الخضر غيلان أيضا إلى تلمسان بعد أن هزمه مولاي الرشيد. كما تجدر الإشارة إلى التعاون الحاصل بين قراصنة الجزائر وقراصنة مدينة سلا في حروبهم ضد السفن الأوروبية عموما والإسبانية على وجه الخصوص.

4- شكلت الأوبئة والمجاعات مظهرا من مظاهر الأزمة التي عرفها المغرب خلال النصف الأول من القرن السابع عشر

إلى جانب الأزمات السياسية التي تخبط فيها المغرب، كان خلال الفترة الممتدة ما بين سنتي 1597-1662 عرضة لمجموعة من الجوائح الطبيعية من أوبئة وتوالي سنوات الجفاف وانتشار المجاعات. كان وقع هذه الكوارث وازنا على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية،

-**على المستوى السياسي**: شكلت الأوبئة ظاهرة حضرية بامتياز، وقد تضررت منها الحواضر المغربية الكبرى التي كانت مركز القرار السياسي السعدي. فبعد انتشار وباء 1598 اضطر السلطان المنصور إلى مغادرة عاصمة ملكه والتخييم خارجها. وقد كان لمغادرته عاصمة ملكه أثر سلبي على قوة الحكم، إذ نالها ضعف شديد، وازدادت حدة التمردات، وضعف الأمن نتيجة النقص الشديد في عدد الجنود، وعاد المتمردون لمهاجمة مصانع السكر مما تسبب في إضعاف المخزن الذي كان يعتبر صناعة السكر أهم أسس قوته. بل كان الوباء هو السبب الرئيسي في زعزعة بنيان الدولة السعدية، بما أنه قضى على أقوى سلطان عرفته هذه الدولة وهو السلطان المنصور الذي توفي جراء إصابته بالطاعون. كما قضى على عدد كبير من العلماء ومن أفراد السلالة السعدية بمراكش. وبالمقابل تسببت

العودة الدورية للمجاعات والأوبئة التي استمرت إلى حين وصول العلويين إلى الحكم في تسهيل سيطرتهم على مجموعة من المناطق، فزاوية الدلاء ومراكش وسوس استسلمت دون مقاومة لأنها كانت منهكة بتوالي دورات الأوبئة.

على المستوى الديموغرافي: أدى انتشار الوباء إلى نزيف ديموغرافي أدى إلى إفراغ المناطق المأهولة بالسكان من سكانها نتيجة وفاة ما بين ثلث ونصف سكان المغرب، فقد أشار بعض الإخباريين إلى حدوث حوالي ألف وفاة في اليوم في مدينة فاس وألفي وفاة في اليوم في مدينة مراكش عقب انتشار وباء سنة 1598، كما اضطر الناجون منهم إلى الفرار إلى الأماكن الآمنة خاصة إلى البوادي. مما أدى إلى تزايد نمط عيش الترحال. كما أبادت المجاعات قبائل عن آخرها بعد أن اضطر سكانها إلى الاقتيات على الأعشاب البرية وجيف البهائم.

على المستوى الاقتصادي: أدى الوباء إلى توقف مصانع السكر عن العمل جراء النقص في اليد العاملة التي راحت ضحية الوباء، والتي كانت تشكل قوة منتجة مهمة،، واضطر المعلمية والعمال الناجون إلى الهرب خوفا من الوباء الذي ظهر في بعضها، وتركوا كل شيء عرضة للنهب مما هدد بتخريب هذه المصانع. وأصبحت السهول فارغة وتوقف الإنتاج الزراعي خاصة إنتاج السكر وانهار تصديره، وتباطأت وثيرة المبادلات وارتفعت أسعار المواد الغذائية. وزاد من تأزم الوضع لجوء المخزن إلى منع التنقل خوفا من انتشار العدوى مما أضر بالتجار والمسافرين وحال دون حركية البضائع، كما تقلص الإنتاج المعدني أيضا، وتراجعت المداخيل الجمركية والضريبية جراء فراغ المراسي وعدم قدرة الجباة القيام بتحصيل الضرائب، إلى جانب انتشار عمليات النهب وقطع الطرق. كما خلف عدم انتظام التساقطات وانتشار القحط مجاعات قاتلة وغلاء شديدا بسبب النقص في المؤن ونهبها من طرف الجائعين أو مصادرتها من طرف مستخلصي الضرائب. حيث بلغ ثمن المؤن بمراكش وزنه ذهبا في مجاعة سنة 1626، زاد من تفاقم الوضع وصول حشود الجراد القادمة من الجنوب والتي كانت تأتي على الأخضر واليابس.

خلاصات

يعتبر القرن السابع عشر من الفترات الصعبة في تاريخ المغرب، فقد شكل البوثقة التي انصهرت فيها كل الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتفرز دينامية سرعت إيقاع التحولات السياسية في المغرب والمتمثلة في وصول الشرفاء العلويين إلى الحكم، الذين تمكنوا من إعادة الاستقرار والوحدة السياسية للبلاد، ليدشنوا فيما بعد مرحلة تحرير الثغور من الاحتلال الأوروبي.

إن وضعية المغرب خلال القرن السابع عشر لا تشكل استثناء عن بقية العالم: فقد تميز بضراوة الحروب بين الطامعين في الاستئثار بالسلطة على غرار ما عرفته أوربا نفسها من حروب، لعل أهمها حرب الثلاثين سنة،. كما أنه زمن الأوبئة بامتياز، لقد كان للتغير المناخي والانتقال من دورة جافة إلى دورة رطبة أثره على انتشار الأمراض التنفسية وأوبئة أخرى لا تقل ضراوة عن الطاعون الأسود الذي عرفه المجال المتوسطي ما بين سنتي 1348 و1352 . وقد كان للحروب من جهة والأوبئة والمجاعات من جهة أخرى أثر كبير على الأوضاع الديموغرافية في بلدان المتوسط

ومن بينها المغرب، ومن ثمة على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وتجاوزتها إلى التأثير على القضايا الثقافية، وبدا هذا الأمر واضحا في كثرة المصنفات المتعلقة بكتب النوازل الفقهية.

بيبليوغرافيا

أميلي (حسن)، **الجهاد البحري بمصب أبي رقراق خلال القرن السابع عشر الميلادي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، دار أبي رقراق، 2006.

حجي (محمد)، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، 1988.

جادور (محمد)، **مؤسسة المخزن في المغرب**، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء، 2011.

حركات (إبراهيم)، **المغرب عبر التاريخ، ج 2** ، دار النشر الحديثة، الدار البيضاء، 1978.

الشاذلي (عبد اللطيف)، **الحركة العياشية حلقة من تاريخ المغرب في القرن السابع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1982.

القبلي (محمد)، (إشراف وتنسيق)، **تاريخ المغرب تركيب وتحيين**، منشورات المعهد الملكي لتاريخ المغرب، الرباط، 2012.

القبلي، (محمد)، (إشراف وتنسيق)، **موجز تاريخ المغرب**، منشورات المعهد الملكي لتاريخ المغرب، الرباط،

كريم (عبد الكريم)، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 2006.

Castries (Henri de), **Les sources inédites de l'histoire du Maroc**, 1ère série, Dynastie sa'dienne, Archives et bibliothèque de France, Tome III, Ed. Ernest Leroux, Paris, 1911.

Maziane,(Leila), **Sale et ses corsaires** (**1666-1727**) **Un port de course marocain au XVIIe siècle**, publications des Universités de Rouen et du Havre, Presse universitaire de Caen, 2007.

Rosengerger (Bernard) et Triki (Hamid), « Famine et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles »,in, **Hespéris Tamuda**, vol.XIV et XV. 1973-1974, faculté des lettres et des sciences humaines, Rabat.p.24-103.

.